

قصة العراق في بغداد

محمد النقاش

« الآداب » الى نهايتها دون تردد أو خجل . وهو عند كتابة هذه السطور على وشك أن يوقع على معاهدة مصرية - اسرائيلية تنص على صلح كامل مع اسرائيل ، لم تحصل اسرائيل نفسها بالحصول على مثلها في يوم من الايام ، لانها تشتمل على حسن جوار وتبادل دبلوماسي وتعامل اقتصادي وتعاون ثقافي ، وتجعل باختصار من عدوي الامس اللدودين صديقين حميمين .

لا عجب اذا كان وقع هذا الانحراف الهائل ، الذي لا يستطيع أحد أن يعفّ عن نعته بالخيانة ، بالفا ما بلغ من الاعتدال والتسامح ، كوقع الصاعقة على رؤوس العرب . وكانت أسرع الدول العربية الى الفعل الدول الموصوفة بالثورية او التقدمية ، وهي سوريا والعراق وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية ، ومعها بالطبع منظمة التحرير الفلسطينية .

تنادت هذه الدول الى اجتماع عاجل في طرابلس (ليبيا) للتشاور في امر المبادرة الساداتية الاستسلامية . وقامت جبهة الصمود والتصدي ، دون اشتراك العراق الذي كان يطالب مبدئياً برفض القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن الدولي ، لازالة آثار العدوان الاسرائيلي دون ازالة اسرائيل نفسها . وكان ما بينه وبين سوريا سببا آخر في عدم اشتراكه . لكن موقف العراق من التخاذل الساداتي لم يكن اضعف من موقف «الجبهة» ، وكان محسوبا منها دون أن يكون فيها .

ولم تختصم جبهة الصمود والتصدي مع أية دولة عربية تخلت عن الانتماء اليها . كان قد كفاها أن ما من دولة جهرت بتأييد واضح لمبادرة السادات . ولعل وعي الجماهير العربية لعدالة القضية الفلسطينية وايمانها بقومية المعركة ضد الخطر الصهيوني ، كان لهما اثرهما في تحديد المواقف الرسمية او عدم جلائها . وكانت حرارة المقاومة للسادات ترتفع مع اقتراب خطواته العجلى من هدفه الاخير ، وهو الصلح كيفما كان ومهما كلف . . .

كانت الخيانة تعدو ، بينما كان الشرف يسير على مهل ، والامبريالية تصطنع له العقبان في الطريق . ففي لبنان قام طابور خامس متحالف في السر والعلن مع اسرائيل ، وراح يورط قوات الردع العربية الموجودة فيه لمساعدته على استعادة أمنه وحياته الطبيعية ، في

في عام ١٩٥٧ كانت بغداد مرشحة الامبريالية العالمية كي تكون عاصمة حلف يجمع أكبر عدد من دول الشرق الاوسط تحت مظلتها ، تحقيقا لما عرف آنذاك بمبدأ ايزنهاور (رئيس الولايات المتحدة) القائل بملاء الفراغ شرقي قناة السويس ، ذلك الفراغ الذي أحدثه جلاء القوات البريطانية عن المنطقة ، وما تلاه من تأميم لشركة القناة العالمية ، بحيث لم يبق هناك من يضمن حراسة المصالح الاوروبية - الاميركية ، وفي طليعتها النفط وطرق المواصلات بين القارات الثلاث .

وهبّ العرب التقدميون لمحاربة المشروع الرامي الى اعادة النفوذ الغربي من الشباك بعد خروجه من الباب . وقد نجحوا في احباطه بل لم تلبث الرجعية العراقية الداعية له أن انهارت بفضل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وانهار معها حلف بغداد أو ميثاق بغداد كما كان يدعى في تلك الايام .

تم ذلك ، وعلى رأس حملة المكافحة لهذا «الميثاق» مصر بقيادة جمال عبد الناصر .

وفي الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٧٨ ، أي بعد احدى وعشرين سنة ، عقد مؤتمر قمة عربية في بغداد ، بحضور عشرين دولة عربية ومنظمة التحرير الفلسطينية التي تمثل شعب فلسطين ، لمكافحة خطر لا يقل عن خطر حلف بغداد الاستعماري ، أو قل يفوقه ويتعداه . وكان الغائب الوحيد عن هذا المؤتمر مصر بقيادة أنور السادات ، لسبب بسيط هو أنها لم تدع إليه . وربما لو دعيت لما جاءت . . . وذلك لأنها بفعل قيادتها الحالية منشأ الخطر وموطنه . فهي ، بحجمها الضخم ووزنها الكبير ، ومن موقع مواجهتها للعدو الاسرائيلي ، أقدمت منفردة على ما لم تجرؤ عليه أعرق الدول العربية رجعية ، فقبلت مصالحة هذا العدو برعاية أميركا ومباركتها. نقول « قبلت » . . . والصحيح ان رئيسها السادات هو الذي طرق بابها وقصد اليها في دارها المفتتحة ، خافضا سلاحه ، رافعا الرايات البيضاء ، يتغنى بالسلام ، وينادي بالوفاق والوئام ونسيان الماضي بضعائه ومآسيه ، منطلقا الى مستقبل كله ود وتعاون ورخاء . . . ومضى أنور السادات في مبادرته كما يعرف قراء

متين ومؤسف معا ، لان مصر بفعل رئيسها السادات بقيت خارج العقد ، وهي التي طالما كانت واسطة العقد .

كانت هذه القمة بفضل الوفاق السوري العراقي الذي اشرنا اليه اعلاه ، وبفضل تنظيم عراقي ممتاز ، وبالتلبية الاجماعية من قبل الدول العربية كلها بما فيها فلسطين ، انجازا رائعا ان دل على شيء فهو هذا الحس القومي العربي الراسخ الذي يحاول بعضهم ان ينال منه او يهزأ به ، وهو اصلب من الفرانك والماس .

احدى وعشرون دولة على اختلاف مناخها الجغرافي ، ونظمها السياسية ، خفت الى ضفاف دجلة ، تتداول وتتشاور في اخطر امر صدمها في نهضتها الحديثة : انحراف قطر عربي عن الطريق المستقيم الذي اختطته الامة دفاعا عن ترابها وحققا وحررتها وشرها .

الصقور والحمام .. المتطرفون والمعتدلون ، استجابوا جميعا لدعوة العراق المكافح الذي ما انفك يطمح الى خوض المعركة رغم بعده عن الميدان . خفوا وهم يدركون ان لا عاصم اليوم ، وان الخطر الاسرائيلي يتهدد حرياتهم وثرواتهم وحضارتهم وكل ما من اجله تستحق الحياة ان تعاش .

واحمق او مغرض من يتهمهم بالتشنج . ولعلمهم على شيء من التوتر ، وهم على حق في ذلك . لكن التوتر الخلاق هو غير التشنج المخدر ، صفة المتخاذلين والجنائ . انهم يستشعرون خطر انتقال اربعين مليون عربي مصري من حندق العروبة الى حندق الاعداء ، واربعين مليون زبون لمتجاتهم وسلعهم واصليلهم . وقد صمم المؤتمرون على ان يضعوا حدا للمأساة ، على ان يطوقوها ويحصروا اضرارها حتى يصير في وسع الشعب المصري ان ينفذ عنه نير السادات ، ويعود الى الحظيرة العربية ، يكافح مع المكافحين ، ويصبر اخيرا مع الصابرين ، وينتصر مع المنتصرين .

ما أعجب هذه الامة ، كيف تنمو وتتطور بسرعة ! لقد بحثت بكل دقة ، لكن عبثا ، عن ظاهرة فورية ، عن حماسة فارغة ، عن كلام من فوق السطوح . كل شيء في خطبهم ، في تصرفاتهم ، في مقرراتهم ، كان وليد تفكير ناضج ، واتزان أكيد ، وواقعية صارخة ، لكن دون استخفاء ولا انهزامية . انهم رجال يحترمون انفسهم ، ويقدمون حقهم ، ولا يستخفون بأعدائهم . وهم مصممون على الكفاح من اجل سلام عادل حقا ، شريف حقا ، في نطاق القانون الدولي ، والاستعداد لاغلى التضحيات .

ان مطالبهم بسيطة وواضحة ، تتلخص في بضع كلمات : عودة الارض المحتلة عام ١٩٦٧ بما فيها القدس . تمكين الشعب الفلسطيني من اقامة دولته على أرضه . كذلك وسائلهم : لا معنى لدول عربية مواجهة واخرى

معركة جانبية ، وادركت قوات الردع هذه ، المؤلفة بكثرتها الساحقة من عناصر الجيش السوري ، غرض المورطين ، فضربت بشدة ، وهي التي ما كانت تريد ان تضطر الى الضرب . لكن ما كان في وسع سوريا ان تضرب الطابور اللبناني الخامس (او الاول) مع الحدود ، لثلا تصطدم بالقوات الاسرائيلية في غير اوان . ولعل هذا الوضع كان من اول البوادر للتفكير جديا بمصالحة تامة بين نظامي سوريا والعراق التوأمين . هذا الوضع ومعه مقررات كامب دافيد في الولايات المتحدة ، تلك المقررات التي قذفت نهائيا بأنور السادات في احضان اميركا والصلح مع اسرائيل . وكانت خطوات بين العاصمتين الشقيقتين . وكانت لقاءات لانهاء الخلاف العائلي والشقاق الاخوي . وخرج « ميثاق العمل » بين دمشق وبغداد ، « ميثاق بغداد العربي » الذي كان اروع اشراقة في ظلمة الليل الساداتي البهيم . اشراقة احييت الامل في النفوس ، وباغتت اعداء العرب ، وخصوم التقدمية العربية . فاذا بالقطرين القوميين يخرجان بقرارات تنم عن نضج هذه الامة العربية على نار التجارب القاسية . قرارات خالية من كل ما هو جياش فياش . . . قرارات رجال دولة يحبون تاريخهم ويؤمنون بتراتهم ، لكنهم يعيشون روح العصر ، ويعرفون ابعاده واعماقه ، ويحيطون بأساليبه ووسائله . لقد القوا أسس الوحدة ، بل لعلمهم حققوا الوحدة دون كلمات كبرى ولا طنين ورنين . فحين تكون هناك لجنة مشتركة دائمة لتنسيق الشؤون العسكرية (الاولوية لهذه الشؤون في الوقت الحاضر) ولجنة للتكامل الاقتصادي ، ولجنة لتوحيد برامج التعليم ، وحين يسمح لمواطني القطرين بالانتقال ما بينهما دون حاجة الى جواز سفر ولا الى رخصة عمل . . . لا يبقى الا القليل مما يقتضيه اتحاد فدرالي .

ان لميثاق بغداد السوري - العراقي آفاقا تتجاوز معالجة المرحلة الحالية بنكباتها الاسرائيلية والساداتية . انها نواة للوحدة العربية من صنف جديد تبذر في الارض العربية بعد ان اجذبت هذه الارض ويبست نبتة الوحدة الاولى بين مصر وسورية .

وبئست هذه الارض يوم تستعصي على توحيد الامة العربية توحيدا حديثا ، لا يذيب الاقليميات ويقضي عليها ، بل يدعها تزدهر شريطة ان تؤلف باقة واحدة ، بتعدد ألوانها وبتنوع ورد شذاها .

المفروض طبعا بعد « ميثاق العمل » بين بغداد ودمشق ، ان تنضم الاولى الى جبهة الصمود والتصدي ، حيث مكانها المناسب . لكن الذي لا شك فيه هو انه لولا « ميثاق بغداد » السوري العراقي ، لما تم عقد قمة بغداد التي جمعت الشمل من الخليج الى المحيط ، ومن اليمين الى اليسار ، واعادت التضامن العربي بشكل

لمصر ، وذلك تحاشيا لتحميل الشعب العربي في مصر
وزر نظامه الخائن .
وهناك - على الهامش كما قيل - وعد بمساعدات
مالية تعين الشعب العربي في مصر على اعادة البناء .
ومن البديهي ان مثل هذه المساعدات لا يمكن أن تأتي
من مؤتمر هو في الاصل والفرع لمكافحة الخطر
الصهيوني ، لبلد فيه من يغازل الصهيونية .

رب قائل يسأل :

وما الضمان لتنفيذ كل ما أوردت ؟

وجوابي ان لا ضمان الا حسن النية . فأنا حين
أكتب لا أزعم الرجم بالغيب ، ولا أستند الى القيل
والقال . ان اعتمادي كله على المقررات والتصريحات .
ومع ذلك - فهناك جبهة الصمود والتصدي
التقدمية التي اشتد أزرها - أو سوف يشتد - بانضمام
العراق . وهي بقواها البشرية ومواردها الطبيعية
وصداقاتها الدولية قادرة على احباط كل مشروع
امبريالي لسلام غاشم . فالغلبة هي أولا للفكر ، والفكر
التقدمي لا ينهزم .

بيروت

مساندة . فالجميع أمام الخطر الاسرائيلي واحد . ولا
مفر من تعاون الجميع دون تمييز بغية الوصول الى
الهدف . وكل يقدم أقصى ما يستطيع سواء في الانفس
أو الاموال ، مع الالتزام بمقررات القمم العربية السابقة ،
لا سيما قمتي الجزائر والرباط .

والمؤتمر لم يعقد ضد مصر، حتى ولا ضد السادات
بوجه خاص . لقد عقد لصيانة الحقوق العربية واستعادة
ما ضاع منها ، أو أقصى ما ضاع منها . لكن ليس معقولا
ولا مقبولا أن تبقى مصر عضوا سويا في جامعة الدول
العربية ، وهي صديقة لاسرائيل . فيجب تجميد
عضويتها في هذه المؤسسة . كذلك ليس معقولا ولا
مقبولا أن تبقى عاصمة بلد عربي يتعاون مع العدو ، مقرا
لجامعة الدول العربية ، فيجب أن ينقل الى مكان آخر
(تونس مبدئيا) . وليس معقولا ولا مقبولا أن يقاطع
العرب شركة أو هيئة تتعامل مع اسرائيل ، ويحافظوا
على علاقات طبيعية مع شركة مصرية تفعل الشيء
نفسه . لكن لن تكون هناك مقاطعة اقتصادية شاملة

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

★

● ماركسية القرن العشرين

ترجمة نزيه الحكيم

● منعطف الاشتراكية الكبير

ترجمة ذوقان قرقوط

● البديل

ترجمة جورج طرابيشي

● مشروع الامل